مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الاول - المجلد الثاني والخمسون

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

علة كثرة الاستعمال في كتاب سيبويه

أ.د. رشيد العبيدي
الجامعة الإسلاميـــة

الملخص

هذا البحث الموسوم : (علة كثرة الاستعمال في كتاب سـيبويه) وضعته في مبحث التعليل ، والتسويغ ــ او التبرير ــ لما يجرى علـى لسان مستعمل اللغة من تسامحات ، ومجازات وتوسعات في السـياقات التعبيرية، مما عرف عند النحاة بالعلة النحوية ، ولقد عني بذلك الخليـل بن احمد (١٧٥هـــ) ومن بعده سيبويه (١٨٠هـــ) واستكثر من ذلك في كتابه ، وفرّ كثيراً من الاستعمالات الواردة في كلام العرب ، مما فيـــها بيان المرفوع أو منصوب أو مجرور ، أو إيجاز، أو تخفيف، أو إطناب واطالة ، او تثقـيل ، او تخفيف ، فيتساءل ــ كثيراً ــ عن سبب كـــل ذلك ، كان يقول : لماذا جاء في كلام العرب نحو قولهم : ((ايـش)) ، وهم يريدون : (أي شيء) ، كان جواب هذا التساؤل انـــهم اســتثقلوا (أي + شيء) فنحتوا منها : (ايشي)) طلباً للخفـــة علـــى اللســـان وللسرعة في النطق ، وهذا هو المسوّغ ــ المبرر ــ للاستعمال . وذلك يعني انه ما يكثر دورانه على ألسنتهم ويتكرر في كلامهم يصيرون فيه الى الإيجاز وربما نحتوا العبارة الطويلة، وتخلصوا من الطول ، كمـــا تخلصوا من الثقل، وذلك نحو : (بسمل) يريـــدون بســـم الله الرحمـــن

الرحيم ، و (حوقل) ، يريدون : (لا حول ولا قوة الا بـــالله العلـــيّ العظيم) ، و(هيلل) يريدون لا اله إلا الله ... وهكذا ومثل هذا استكثر منه سيبويه ، وارجع علته الى قضية التخلص من الثقل وطول العبارة ، فكتبنا نحن هذا الموضوع ((علة كثرة الاستعمال في كتاب ســيبويه)) لنبين رأيه في هذا الموضوع .

سيبويه في (الكتاب) مغرم بالعلة النحوية ، اللغوية ، لا يترك مسالة من مسائل الصيغ والتراكيب الا وهو يقرنها بالتعليل ، فكأنه يفترض ان سائلاً يسأله عن سبب رفع هذا ونصب ذاك ، او حذف تلك الكلمة ، وزيادة الأخرى ، او نقص حرف وزيادته الى غير ذلك مما تحتمله قواعد اللسان العربي ، او تبني عليه فيحاول من خلال هذه الافتراضات التي يقترحها لنفسه ، ان يجيب عنها معللاً ومفسراً .

وهذه العلل مبثوثة بشكل واضح في حالات الإعراب المختلفة ، والابنية والصيغ راجعاً في الكثير منها الى الخليل بن احمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) أستاذه ، او الى غيره من الأئمة الذين سبقوا الخليل ، او عاصروه من أمثال عبد الله بن ابي إسحاق الحضرمي : (١١٧ هـ) الذي قيل عنه : انه ((كان أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل))[١].

وممن اهتم بالعلل والاقيسة عيسى بن عمر (١٤٩ هـ) ، وابو عمرو بن العلاء : (١٥٤هـ) وأبو الخطاب الأخفش (١٧٧ هـ) ويونس بن حبيب (١٨٢هـ) [٢] ، فضلاً عن الخليل الذي يرى الكثير من الباحثين ان أثره في كتاب سيبويه كان كبيراً جداً ، فيقول السيرافي (٣٦٨ هـ) ان : ((عامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل ، وكلما قال سيبويه (وسألته) أو (قال ...) من غير ان يذكر قائله ، فهوُ الخليل ..) [٣].

---

[١] طبقات ابن سلام : ص : ٦ وطبقات الزبيدي : ٢٥ .

[٢] الانباه : القفطي : ٢ / ١٠٥ .

[٣] ينظر : الكتاب : ١ / ٢٩٢ و ٢ / ٢٨١ و ٣ / ٥١٧ وغيرها .

ولقد أحصى علي النجدي ناصف ما نقل سيبويه من التعليلات ، والآراء ووجهات النظر عن ابي الخطاب الأخفش ما يقرب من سبع وأربعين مرة .

وعن يونس بن حبيب النحوي ما يناهز مئتي رواية ، في مختلف ضروب القول في مسائل النحو[٤] . وأبرزها موضوع علة (كثرة الاستعمال)[٥] التي نعقد لها هذا البحث .

والعلية في اللغة ، تعني السبب ، فإذا قال قائل : علة هذا الشيء هي كذا ، فإنما يراد بذلك سببه ، يقول ابن منظور : (٧١١هـ) : ((هذا علة لهذا ، أي : سبب)) وفي حديث عائشة ((كان عبد الرحمن يضرب رجلي بعلة الراحلة ، أي : بسببها))[٦]. ويعني ذلك ان الصيغة او الظاهرة اللغوية ، او التعبير المعين قد اتخذ وجهة خاصة بسبب من الأسباب التي أدت الى إيجاب حكم معين في الكلام .

وتدخل العلة في أصول النحو ، ولا سيما موضوع القياس ، الذي يبنى على وجود مقيس ، ومقيس عليه وحكم ، وعلة جامعة ، كعلة الإسناد التي تجمع بين الفاعل المقيس عليه وهو الأصل ، والمقيس ــ وهو نائب الفاعل ــ وهو الفرع ، والحكم وهو الرفع لكليهما الفاعل ونائب الفاعل ، ثم العلة التي تجمع بينهما ، وهي : الإسناد[٧] . ولذلك يقول ابو البركات الانباري : (٥٧٧ هـ) في تعريف القياس :

---

[٤] سيبويه إمام النحاة : ٩١ ــ ٩٢ .

[٥] نفسه : ٩٨ .

[٦] ينظر : اللسان : ٣ / ٤٩٨ (علل) .

[٧] ينظر : لمع الأدلة : ٩٣ .

((تقـدير الفرع بحكم الأصل ، وقيـل هـو حمل فرع علـى اصـل بعلة))[٨] .

ومعلوم ان الخليل يرى ان التعليل أمر لابد منه في أبنية اللغـة وتراكيبها وهو يشبه العلة في اللغة ، بعلة البأني في تصميـم البنـاء ، حين يضع كل جزء منه في موضع معين لسـبب نفسـه ، ولحكمـة أرادها[٩] . فقد روى الزجاجي ان الخليل قد سئل عن العلل التي يعتـل بها في النحو ، فقيل له : اعن العرب أخذتها ، أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : ان العرب نطقـت على سجيتها وطباعـها ، وعرفـت مواقـع كلامها ، وقام في عقولها علله وان لم ينقـل ذلك عنها واعتللت أنا بمـا عندي انه علة لما عللته منه ، فان اكن أصبـت العلـة ، فـهو الـذي التمست ، وان تكن هناك علة له ، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخـل داراً محكمة البناء عجيبة النظم ، والأقسام ، وقد صحت عنـده حكمـة بانيها بالخبر الصادق اليقين او بالبراهين الواضحة والحجج اللائحـة ، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها ، قال : إنما فعل هـذا هكذا لعلة كذا وكذا ولسبب كذا وكذا ، سنحت لـه ، وخطـرت ببالـه محتملة لذلك ، فجائز ان يكون الحكيم الباني للدار ، فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار ، وجائز ان يكون فعله لغير تلك العلـة ، إلا ان ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل ان يكون علة لذلك ، فـان سـنح لغيري علـة لما عللتـه هي من النحو هـي أليق مما ذكرته بالمعلول

---

[٨] نفسه والصفحة نفسها .

[٩] ينظر في نظرة الخليل الى العلة والتعليل ، كتاب الإيضاح للزجاجي ، والاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي .

فيأت بها))[١٠].

ويقرر ابن جني : (٣٩٢هـ) ان التعليل في اللغة ضرورة لا مناص من الأخذ بها والاحتكام إليها في معرفة أصول الكلام واحكام نظامه ، وكان ابن جني يرى ان أبا عمرو بن العلاء ومن في طبقته ، ((قد نظروا وتدربوا وقاسوا وتصرفوا ان يسمعوا اعرابياً جافياً غفلاً ، يعلل هذا الموضع بهذه العلة ، ويحتج لتأنيث المذكر .....))[١١].

وذلك ان ابا عمرو قد سمع اعرابياً يقول : ((جاءته كتابي واحتقرها)) فقال له ، أبو عمرو : ((أتقول : جاءته كتابي ؟ قال ــ الإعرابي ــ : نعم ، أليس بصحيفة ؟)) فعجب ابو عمرو من تأنيث الفعل ، مع ان الفاعل مذكر ، والأعجب من هذا انه فسر (كتابي) بـ (صحيفة) ، ولاجل هذا التفسير ، أنث الفعل ، فيقول ابن جني : ((افتراك تريد من ابي عمرو وطبقته ، وقد نظروا و ....)) العبارة وينتقد ابن جني بعد ذلك من يستهجن موضوع التعليل ، ويحسبه امراً خارجاً عن أصول النحو العربي وقواعده[١٢] . بل هو يبني كتابه الخصائص ، وغيره من كتبه ، على التعليل والاستنباط ، والتفتيش عن السبب والعلة في التراكيب والصيغ ، والأبنية ، فلا يترك مسالة من مسائل النحو حتى تراه قد عرضها على العقل والمنطق ، ووضع بازائها ما يسوغ بناءها على الشكل الذي سمعت او نطقت به في لسان العربي .

---

[١٠] الإيضاح : ٦٥ ــ ٦٦ .

[١١] الخصائص : ١ / ٢٤٩ .

[١٢] نفسه ، والصفحة والجزء .

والعلل كثيرة بلغت اكثر من أربع وعشرين علة [١٣] ، ذكرهـا علمـاء اللغة المتقدمون [١٤] والدارسون المحدثون . ومن بينها علة : ((كـثرة الاستعمال)) .

وهذه العلة تتركز في اللغة على ما يدور ــ كثيراً ــ في لسـان العرب من تراكيب وصيغ يؤدي دورانها الكثير الى بعض التغيير فـي الكلام كالحذف والزيادة ، والإيجاز والتقديم والتأخير ، ومـا يتصـل بذلك من صور التغيير ، يقول ابن يعيش : ((لكثرة الاستعمال اثر فـي التغيير ، ألا ترى انهم قالوا : أيش والمراد : أي شيء وقالوا : ويلُمِّهِ ، وقالوا : لا ادر ، فغيروا هذه الأشياء عن مقتضاها لضرب من التخفيف عند كثرة الاستعمال))[١٥].

ويلاحظ ان ابن يعيش قد جمع ــ هنا ــ في عباراته بين علتين ، وهما علة التخفيف وهي علة من علل النحو العربي ، وعلة كثرة الاسـتعمال في الكلام ، وهي العلة التي نريد ان نلم بها عند سـيبويه مـن خـلال الكتاب .

والتخفيف هو تحصيل حاصل للتغيرات التي تطرا على البنيـة في الكلام ، لان العربي يريد ان يوجز ويختصر ليسهل عليـه نطـق العبارة ، إذا ما أحس بثقلها حين ينطقها ، او إذا ما فهم معناهـا مـع إيجازها ، يقول الفراء ، معللا الحذف والإيجـاز : ((لان مـن شـان العرب الإيجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه)) [١٦].

---

[١٣] الاقتراح : ص ٤٨ .

[١٤] ينظر : ابو عثمان المازني : ١٥٤ ــ ١٥٥ .

[١٥] شرح ابن يعيش على المفصل : ٤ / ١٠٢ .

[١٦] معاني القران : جـ ١ / ص ٢ .

ووجد سيبويه ، أستاذه الخليل كثير الأخذ بعلة كثرة الاستعمال حين رأى العرب تحذف من كلامها وتوجز في عباراتها ، وتغير في البنى ، فهو يقول : ((وهذا حذف حين كثر استعمالهم إياه ، في الكلام ، كما حذف الكلام من : (إمّالا) زعم الخليل ــ رحمه الله ــ انهم ارادوا ان كنت لا تفعل غيره فافعل كذا وكذا امالا ، ولكنهم حذفوه لكثرته في الكلام ، ومثل ذلك : (حينئذ ، الآن) إنما تريد ، واسمع الآن ، و (ما أغفله عنك شيئاً) ، أي دع الشك عنك ، فحذف هذا لكثرة استعمالهم))[١٧].

وفكرة التخفيف التي تصحب علة كثرة الاستعمال ، ليست فكرة سيبويهية ، بل لقد تلقفها عن شيخه الفراهيدي ، فمعظم تعليلاته نجده فيها يمزج بينهما في علة واحدة ، وهي كذلك لو تأملناها ، فالعربي ــ كما سبق قول الفراء ــ إنما يوجز ليقلل الكثير ــ يقول الخليل كما نقل سيبويه : ((ان قولهم : لاه أبوك ، ولقيته أمس ، إنما هو على ((لله أبوك)) و ((لقيته بالأمس)) ولكنهم حذفوا الجار ، والألف واللام تخفيفاً على اللسان وليس كل جار يضمر ، لان المجرور داخل الجار ، فصار عندهم بمنزلة حرف واحد ، فمن ثم قبح ، ولكنهم قد يضمرونه ويحذفونه فيما كثر من كلامهم ، لانهم الى تخفيف ما اكثروا استعماله أحوج))[١٨]. ويكرر سيبويه النقل عن شيخه مثل هذه الأقوال في تضاعيف كتابه [١٩].

---

[١٧] الكتاب : ٢ / ١٢٩ .

[١٨] نفسه : ٢ / ١٦٢ .

[١٩] تنظر في الكتاب : جـ ١ / ص ١٦٥ و ٢ / ١٦١ و ١٧٢ وغيرها .

ثم نرى سيبويه بعد ذلك يلتزم الإشارة الى الجمع بين التخفيف وكثرة الاستعمال مستغنياً عن كلام شيخه الخليل ، فحين عرف الترخيم قال : انه ((حذف أواخر الأسماء المفردة تخفيفاً)) ثم علل هذا الحذف بقوله : ((ان الترخيم لا يكون الا في النداء ، الا ان يضطر شاعر ، واما كان ذلك في النداء لكثرته في كلامهم ، فحذفوا ذلك كما حذفوا التنوين ، وكما حذفوا الياء من (قومي) ونحوه في النداء))[٢٠].

وتابع سيبويه كثير من علماء النحو العربي في الجمع بين كثرة الاستعمال والحذف من الكلام تخفيفاً [٢١]. ومن المواضع التي ذكر النحويون علة كثرة الاستعمال والحذف تخفيفاً فيها قول العرب : ((يا ابن آدم)) و ((يا ابن عم)) في النداء ، فسيبويه يرى : ((ان هذا اكثر في كلامهم من : يا ابن أبي ، ويا غلام غلامي ، وقد قالوا ــ ايضاً ــ يا ابن امِ ، ويا ابن عمِ ، كأنهم جعلوا الأول والآخر اسماً ثم أضافوا الى الياء ، كقولك : يا أحد عشر اقبلوا ، وان شئت قلت : حذفوا الياء لكثرة هذا في كلامهم))[٢٢] . فكان ذلك أخف في كلامهم من ذكر الياء ، وقد علل الأعلم ذلك ــ ايضاً ــ كما علله سيبويه ، في حذف الياء من اجل الخفة على اللسان [٢٣]. وسار النحويون من بعده

---

[٢٠] الكتاب : ٢ / ٢٣٩ .

[٢١] ينظر : شرح المفصل : ابن يعيش : ٢ / ١٩ و ٢٠ والانصاف : ١ / ٣٥٦ والفوائد الضيائية : الجامي : ١ / ٣٤١ وغيرهم .

[٢٢] الكتاب : ٢ / ٢١٤ .

[٢٣] النكت : ١ / ٣٨٩ ــ ٣٩٠ .

على المنهج نفسه في التعليل[٢٤].

والملاحظ على ما تقدم من عبارة سيبويه انه يشبه ((ابن امَّ)) و ((ابن عم)) بـ ((أحد عشر)) ، وذلك ان ((ابن أم)) واخواته اصبح كالمفردة الواحدة ، فتعامل معاملة الاسم المفرد ، يبقى الاسم الأول مفتوحاً ، كما يفتح العدد الأول من ((أحد عشر)) ، لانه مركب بني على فتح الجزأين ، وكما يفتح الاسم الأول من المركب المزجي ((بعلبك)) و ((حضرموت)) ، وكل ذلك يعامل معاملة الاسم الواحد ..

وعلة كثرة الاستعمال ليست وقفاً على حذف الحروف من اصل الكلمة او مما أضيف اليها ، فاما من اصل الكلمة ، فما رأيناه في الترخيم في نحو القطعة في : يا ابا الحكَ ، ويا حار ، ويا صاح ، من المنادى المرخم الآخر ، وهذا مما شبهوه بحذف التاء في ترخيم نحو : ((يا فاطم)) والأصل : ((يا فاطمة))[٢٥].

واما الحذف للحرف ــ مما أضيف ، فنحو : ((يا ابن امَّ)) و ((يا ابن عم)) ، لان الأصل يا ابن أمي ، ويا ابن عمي ، ونحو : ((يا ربي)) الذي يؤول في الاستعمال الى الحذف فيقال : يا ربِّ ، قال تعالى : ((وقل ربِّ زدني علما)) طه / ١١٤ .

---

[٢٤] ينظر : معاني القرآن للفراء : ١ / ٣٩٤ والمقتضب للمبرد : ٢ / ٢٥١ والأصول : لابن السراج : ١ / ٤١٦ والجمل : للزجاجي : ١٨١ وشرح ابن عصفور عليه : ٢ / ١٨٣ وشرح الرضي على الكافية : ١ / ٣٦ .

[٢٥] ينظر : الكتاب : ٢ / ٢٥٦ والمقتضب : ٤ / ٢٤٣ .

وقد يكون حذف الحرف المزيد ، كحروف الجر في نحو : ((ويلمه)) والأصل فيها (ويل لامه) فحذفت اللام ، كما حذفت همزة الوصل ، فاتصلت اللام من (ويل) بلفظ (أمه) .. فصار : ويلمه ..

وقد يكون الحذف كلمة ، فعلا او اسما او حرفا ، وكل ذلك انما يحصل من اجل التخفيف ، والتخلص من الثقل الذي يكثر في التراكيب والجمل الشائعة الاستعمال الكثيرة الدوران على الألسنة .

والمحذوف قد يكون عاملاً ، فيبقى المعمول منصوباً او مرفوعاً او مجروراً ، كما لو كان العامل مذكوراً ، ومن صور حذف العامل ، حذفهم الفعل في جملة الحال نحو قولهم : ((أخذته بدرهم فصاعداً)) او ((فنازلاً)) او ((فزائداً)) .

وتقديره عند النحويين : ((أخذته بدرهم فذهب الثمن صاعداً))[٢٦]

يقول سيبويه : ((حذفوا الفعل لكثرة استعمالهم اياه ، ولانهم أمنوا ان يكون على الباء ، لو قلت : أخذته بصاعد)) كان قبيحاً ، ((لانه صفة ولا تكون في موضع الاسم ، كأنه قال : أخذته بدرهم ، فزاد الثمن صاعداً ، او فذهب صاعداً))[٢٧] .

والملاحظ في عبارة سيبويه ان الحذف قد وقع في شيئين :

١ ــ العامل وهو الفعل .

٢ ــ الفاعل ، وهو الثمن او المبلغ او ما يقوم مقامهما .

كما يلاحظ ان الحذف قد وقع ، لامن اللبس ، ووضوح المعنى المراد . ولولا ذلك ما أمكن الحذف ، وموضع أمن اللبس ــ هنا ــ ان

---

[٢٦] الكتاب : ١ / ٢٩٠ ، وشرح ابن يعيش ٢ / ٦٨ وشرح الجمل : ٢ / ٤١٦ .

[٢٧] الكتاب : ١ : ٢٩٠ .

الحال وصف ، وهو اسم الفاعل ((صاعد أو نازل أو زائد)) ، ولا يمكن ان تدخل الباء على الوصف ، إذ لا مجال لاستعمالها في هذا الموضع ، فان ((صاعداً ونازلاً)) حال من صاحبها ، وهو الثمن فلو قلت : ((أخذته بصاعد)) لم يتضح المعنى ، وكان الكلام ناقصاً ، ومن هنا يقع اللبس ، ولذلك قال سيبويه : ((أمنوا أن يكون على الباء لو قلت : " أخذته بصاعد " كان قبيحاً)) .

يقول ابن يعيش : ((حذف صاحب الحال والعامل فيه تخفيفاً لكثرة الاستعمال .. وحسن حذف الفعل لأمن اللبس ، ولا يحسن عطفه على الباء .. لوجوه منها : ان صاعدا وزائداً)) صفة ولا يحسن عطفه على الدرهم الموصوف والوجه الثاني : ان الثمن لا يعطف بعضه على بعض بالفاء ؛ لانه لا يتقدم بعضه على بعض ، إنما يقع دفعة واحدة ... والوجه الثالث : ان (صاعداً) صفة ، فلا يحسن ان تجعل ثمناً في موضع الاسم الموصوف))[٢٨].

ومن الحذف للأسماء ، قول العرب : ((لا كالعشية عشية ، ولا كزيد رجل)) و ((لا عليك)) ، يقول سيبويه : ((ونحو هذا اكثر من ان يحصى))[٢٩] وقد فسر سيبويه الحذف هنا بقوله : ((تقول لا كالعشية عشية ، ولا كزيد رجل)) ، ((صار لا كزيد كأنك قلت لا أحد كزيد)) و ((نظير لا كزيد في حذفهم الاسم قولهم : لا عليك ، وانما يريد لا باس عليك و ((لا شيء عليك)) ... ولكنه حذف لكثرة استعمالهم إياه))[٣٠] واخذ بذلك ابن

---

[٢٨] شرح المفصل : ٢ / ٦٨ ــ ٦٩ .

[٢٩] الكتاب : ٣ / ٢٨٩ .

[٣٠] نفسه : ٢ / ٢٩٤ ــ ٢٩٥ .

يعيش[٣١] فقال : ((اعلم انهم قد حذفوا اسم (لا) النافية ، كما حذفوا الخبر ، فقالوا : ((لا عليك والمراد : لا باس عليك)) ، أي : لا شيء عليك ، وانما حذفوا الاسم لكثرة الاستعجال تخفيفاً ، وقالوا : لا كالعشية عشية ، والمراد ، لا عشية كالعشية الليلة ، ومثله : ((لا كالعشية كزيد رجل)) ، والمراد : ((لا أحد كزيد رجل)) ، فالاسم محذوف والجار والمجرور في موضع الخبر ، وعشية مرفوع : لانه عطف بيان على الموضع)) .

اما حذف الفعل في صيغة النداء وهي ((يا)) و ((الاسم المنادي)) نحو : (يا رجل ، ويا زيد) فقد كانت علة كثرة الاستعمال سبباً في حذف الفعل ؛ لان التقدير عند سيبويه هو : ((يا أريد عبد الله)) فحذف ((أريد)) ونابت (يا) عنه ، ((لانك إذا قلت : يا فلان علم انك تريده))[٣٢]ونظرة واحدة في تقدير سيبويه هنا توحي بتكلف مثل هذا التقدير فسبب نصب (عبد الله) انه منادى مضاف اما نحو : ((يا زيد)) فقد جاء مبنياً ، ولم ينصب ، مع ان التقدير واحد ، وهو الفعل المحذوف (أريد) .

ولعل الاكتفاء بان أسلوب النداء هو صيغة جاءت على هذا الشكل في كلام العرب ، وان الأحوال الثلاث التي ظهر فيها (يا عبد الله) بالنصب ، و (يا رجل ــ يا زيد) بالبناء على الضم ، و ((يا صانعاً معروفاً)) بالنصب ، إنما هي أسلوب تكلمت به العرب في صيغ النداء .

---

[٣١] شرح المفصل : ٢ / ١١٤ .

[٣٢] الكتاب : ١ / ٢٩١ .

ويرى السيوطي : (٩١١ هـ) ان الفعل في النداء ، واجب الحذف ، لان الذي يقع في الذهن في صيغة النداء ((انه لو نطق به ، لكثر استعماله ، فلزم الإضمار طلباً للخفة ، لان كثرة الاستعمال مظنة للتخفيف))[٣٣].

ومن المواضع التي يرد فيها حذف الفعل ـ ايضاً ـ لكثرة الاستعمال ، ويبقى المعمول ، ـ وهو المفعول به ـ منصوباً به ، ما شاع من الاستعمالات العربية على لسان العرب نحو قولهم : ((هذا ولا زعماتك)) ، ونحو : ((كل شيء ولا شتيمة حرّ)) ونحو قوله ـ تعالى ـ : ((انتهوا خيرا لكم)) النساء / ١٧١ . ونحو : ((وراءك أوسع لك)) ، فان هذه المواضع قد حذف منها الفعل ، تخفيفاً وتيسيراً على الناطق بها لكثرة دورانها على السنة العرب ، يقول سيبويه : ((هذا باب يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم ، حتى صار بمنزلة المثل ، وذلك قولك : هذا ولا زعماتك ، أي : ولا آتوهم زعماتك ، ولم يذكر ولا آتوهم زعماتك لكثرة استعمالهم اياه ، ولاستدلاله مما يرى من حاله انه ينهاه عن زعمه))[٣٤] .

وقال في نحو : ((كل شيء ولا شتيمة حرّ)) أي : ائت كل شيءٍ ، ولا ترتكب شتيمة حرّ)) فحذف لكثرة استعمالهم إياه ، فاجري مجرى : ولا زعماتك))[٣٥]. وسيبويه في تقديره المحذوف في هذه العبارة الأخيرة ، جعله فعلين ، أولهما : ايت)) فعل الأمر ، والثاني : ((ترتكب)) ، وهو الفعل المجزوم بلا الناهية ، وكذلك فعل حين قدّر

---

[٣٣] الأشباه والنظائر : ١ / ٣٠٨ .

[٣٤] الكتاب : ١ / ٢٨٠ .

[٣٥] نفسه : ١ / ٢٨١ .

المحذوف من قوله ــ تعالى ــ ((انتهوا خيراً)) قال ، وهو ينقل كلام شيخه الخليل في ذلك : ((كأنك تحمله على ذلك المعنى كأنك قلت : انته وادخل فيما هو خير لك فنصبته ؛ لانك قد عرفت انك إذا قلت له : انته ، انك تحمله على أمر آخر ، فلذلك انتصب وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم اياه في الكلام ، ولعلم المخاطب انه محمول على امر حين قال له : انته ، فصار بدلاً من قوله : أنت خيراً لك ، وادخل فيما هو خير لك))[٣٦]. ونقل عن سيبويه انه كان يقدره : ((انتهوا من هذا وآتوا خيراً لكم)) وهذا يعني انه يقدر فعلاً امرياً محذوفاً تقديره ((وآتوا)) وجاراً ومجروراً متعلقاً بالفعل الامري : ((انتهوا)) ، فبقي من اصل الكلام : ((انتهوا خيراً ..)) ..

واختلف النحويون في المحذوف من هذه الجملة القرآنية ، فمذهب الكسائي : ان ((خيراً)) نصب بـ (كان) المحذوفة ؛ لانه وقع خبراً لها والتقدير : ((انتهوا يكن الانتهاء خيراً لكم)) .

اما الفراء فاعرب ((خيراً)) صفة لمصدر محذوف هو مفعول مطلق للفعل ((انتهوا)) والتقدير عنده : ((انتهوا انتهاءً خيراً لكم))[٣٧] .

ومن هذا القبيل ، قول العرب : ((حينئذٍ الآن)) ، فهي عبارة شائعة كثيرة الدوران على الألسنة ، وكثرتها كانت سبباً في إيجازها ، وقد وقع في كلام السيرافي (٣٦٨ هـ) على هامش الكتاب ان ((معنى ذلك ان ذاكراً ذكر شيئاً فيما مضى يستدعي مثله في الحال ، فقال له المخاطب : (حينئذ الآن) ، معناه : كان هذا الذي ذكرت حينئذٍ

---

[٣٦] الكتاب : ١ / ٢٨٢ ــ ٢٨٣ .

[٣٧] ينظر في ذلك كله شرح المفصل : ٢ / ٢٧ ــ ٢٨ ومغني اللبيب : ٢ / ٨٢٧ والأشباه والنظائر : ١ / ٣٠٧ .

في الوقت الذي ذكرت ، واسمع الآن غير ذلك ، او غيره من نحوه من التقدير))[٣٨] .

ويظهر من خلال التقدير ان العبارة في الأصل كانت طويلة ، وان الكلام غير المحذوف كان كثيراً ، فهو أضعاف ما بقي منها في الاستعمال ، وهذا يعني ان التخفيف والإيجاز كان قصد المتكلم في الحذف من الكلام ، تخلصاً مما يثقل على ألسنتهم .

ومن حذف الفعل في التحذير قولهم : ((إياك والأسد)) و ((اياي والشر)) ، وقدر سيبويه الأصل فيهما : ((إياك فاتقين ، والأسد)) و ((إياي لاتقين والشر فإياك متقى والأسد والشر متقيان ، فكلاهما مفعول ومفعول منه))[٣٩] فحذف عاملهما ، وبقي المعمولان في حالة النصب مفعولا ومفعولا منه ، أي : محذراً ومحذراً منه ، واشارة (المفعول منه) ــ هنا ــ غير مألوفة عند النحويين ؛ لان المفاعيل الخمسة عندهم هي : المفعول به وفيه ، ومعه ، وله ، والمطلق ، ولقد ذكر الازهري في التهذيب تسمية سابعة للمفاعيل ، وهو (المفعول عليه) في نحو ركبت البعير ، وصعدت الجبل ، او على الجبل ، لتقدير معنى (على) فيهما[٤٠].

ومن المباحث التي تناولها سيبويه ، تحت علة كثرة الاستعمال قول الناس : ((يا الله اغفر لنا)) دخول (يا) حرف النداء على لفظ الجلالة (الله) . ومعلوم ان حرف النداء لا يدخل على الاسم المبدوء

---

[٣٨] هامش الجزء الأول : ص ٢٧٤ من الكتاب .

[٣٩] ينظر : الكتاب : ١ / ٢٧٣ ــ ٢٧٤ .

[٤٠] ينظر : الازهري : ٤١١ والتهذيب : ٢ / ٤٠٥ (فعل) .

بـ (ال) فما الذي سوغ للعربي ان يدخل حرف النداء على لفظ الجلالة ؟

يقول سيبويه : ((ذلك من قبل انه اسم يلزمه (الألف واللام) ، لا يفارقانه وكثر في كلامهم ، فصار كأن (الألف واللام) فيه بمنزلة (الألف واللام) التي من نفس الحروف ، وليس بمنزلة (الذي) قال ذلك من قبل ان الذي قال ذلك وان كان لا يفارقه الألف واللام ليس اسما بمنزلة (زيد وعمرو) ، لم يجز ذا فيه ، وكان الاسم ـ والله اعلم ـ اله ، فلما ادخلوا فيه الألف واللام ، حذفوا الألف ، وصارت الألف واللام خلفاً منها فهذا ـ ايضاً ـ مما يقويه ان يكون بمنزلة ما هو من نفس الحرف))[٤١].

يريد سيبويه ان (ال) التي لازمت لفظ الجلالة أصبحت كانها من الكلمة ـ أي من بنيتها ـ وليست دخيلة عليها ، فهي كالألف واللام الداخلة على لفظ (رجل) ـ مثلاً ـ فانها زيدت عليها من اجل التعريف ، لذلك ، لم يسغ ان يقال : (يا الرجل) ، فان أريد النداء دخلت (أي) ؛ لتكون وصلة للنداء ، فيقال : ((يا أيها الرجل)) اما جواز دخولها على (الذي) و (التي) فان (ال) فيهما من اصل البنية ، لذلك جاز على قلة وقد ورد في بعض كلام العرب نحو : (..... يا التي تيمت قلبي) و (يا الغلامان اللذان) [٤٢] .

والخلاصة ان علة كثرة الاستعمال من العلل المهمة في كتاب سيبويه ولقد اغرم سيبويه بها ، وولع اشد الولع ، وخرج كثيراً من

---

[٤١] الكتاب : ٢ / ١٩٥ .

[٤٢] ينظر : الانصاف : ١ / ٣٣٥ ، وهو راي الكوفيين وانظر الخزانة ٢ /٢٩٤ .

ظواهر الايجاز والحذف ، والتخفيف في الافعال والاسماء والحروف على كثرة دوران العبارات على السنتهم ، فمالوا الى تقصير الطويل ، وتخفيف الثقيل ، وتيسير العسير من الكلام ليسهل دورانه على الالسنة ، ومما يدل على ذلك ترخيمهم ذوات الخمسة فيصيرونها من ذوات الاربعة وترخيهم ذوات الاربعة ، فيصيرونها من ذوات الثلاثة ، ولكنهم لا يرخمون ذوات الثلاثة ، لان الثلاثة هي اخف عندهم في الكلام ((فكرهوا ان يحذفوه ، اذ صار قصاراهم ان ينتبهوا اليه)) وهذا مذهب الخليل [٤٣].

واجاز الفراء والكوفيون ترخيم الثلاثي اذا كان متحرك الوسط ، نحو : ((عضد)) و ((قدم)) . فجوزوا ان يقال : ((يا عَضُ ، ويا قَدَ))[٤٤] .

وفي ذلك بحث مستفيض في كتب النحو ، لا نرى ضرورة في إطالة الكلام عليه في هذا البحث الموجز عن علة كثرة الاستعمال في كتاب سيبويه ..

---

[٤٣] نفسه : ٢ / ٢٥٥ ــ ٢٥٦ . وينظر : شرح المفصل : ٢ / ٢٠ والأنصاف : ١ / ٣٥٦ .

[٤٤] ينظر : الأنصاف : ١ / ٣٥٦ ــ ٣٥٧ والأصول : ١ / ٤٤٥ والعلل : ابن الوراق : ٢١٠ واللباب العكبري : ١ / ٣٤٧ والرضي على الكافية : ١ / ٣٦٥ .